الشاعر نزار قباني منذ الاربعينات وطوال ربع قرن ، كان اكثر تفاعلا مع حركة التغيير واكثر ثورية ، من صياغاته « السياسية » التي دفعه اليها حزيران دفعا . قد نحترم حس نزار ، مثلا ، في اهمية « المشاركة » ولكننا نختلف معه في طبيعة هذه المشاركة وطبيعة دوافعها المفاجئة . والا فما هو الفرق بين « انعطافته » هذه وبين انعطافة الشاعرة فدوى طوقان « الثورية ! » بعد احتلال نابلس . ونحن ، على هذا الضوء ، قد نختلف مع كثيرين ممن جعلوا من نزار عاملا من عوامل الهزيمة الكثيرة . شأنهم شأن الذين جعلوا « غياب الايمان الديني » عاملا ، او « النظـــام » ، او « الاحزاب .. والسياسة » الى آخره من النظرات الاحادية المجحفة . فنزار صوت متفرد دون شك ، وهو حين يدافع عن « قصائده السياسية » ــ كما يسميها ــ بعد حزيران ، باعتبارها كتبت بدافع الصدق والمشاركة ، لا نملك الا ان نصدقه ، ولكننا حين نواجه « طبيعة » هذا الصدق وهذه المشاركة انما لنتساءل : « هل الصدق وحده يكفي ؟ » اننا حين نبرر نزار بعد حزيران ، يجب علينا بضرورة هذا الصدق ان نبرر كل ركامات القصائد ــ التي اندثرت ــ بل كل ردود الفعل على الصعيد المزاجي والوجداني وعلى الصعيد الادبي والفكري . واذا ما اختلفت مع غالي شكري حول تعليلاته لدوافع نزار الشعرية وغير الشعرية وتحولاته من شاعر الحب والحنين الى شاعر يكتب بالسكين ، فانني اتفـق معه في ان خطأ نزار الفادح « انه جعل من حزيران مجرد مناسبة يقال فيها الشعـر وليست تجربة عميقة الاغوار يعانيها حتى النخاع . وشعر المناسبات مهما تنوعت الوانه وصوره من السياسة الى الجنس الى الوفيات الى المواليد ــ هو شعر مناسبات : أخطر سماته الفنية النظم البارد الذي يفضله النثر معظم الاحيان ، واخطر سماته الفكرية السطحية المفرطة في التفاؤل والتشاؤم والمثالية والجزئية ، واقترانه بلحظة سريعـة الزوال لا يتجاوزها الى ما هو ابعد »(١٩) .

طبعا ، لم يكن نزار وحده في هذا المأزق الابداعي ، اذ يقف معه في ساحته عدد كبير من الشعراء . واذا كان نزار يحمل معه ارثا هاما من العمل الشعري الفاعل يتيح له ان يقدمه وقت الحاجة الى الدفاع عن السمعة فان ذلك العدد الكبير لا يملك ذلك الارث . حين بدأ نزار في الاربعينات كان يحاول بوضوح ان يجمع بين الشعر و« الثورة » ، بمعنى انه لم يفصل بين « الشعر الثوري » و« الثورة في الشعر » بين مواجهة زيف الواقع المتخم بالمحرمات وبين الحاجة القصوى الى التجديد في اللغة القاموسية الزائفة والمتخمة هي الاخرى بالمحرمات . ولكن الذي حصل بعد حزيران وبفعل ردة الفعل والاحساس بالمشاركة ان نزار لم يعد يرى من الشعر الا طرف « حرمة الثورة » ، وطرف المشاركة حتى لو كان الامر على حساب الطرف الاعمق ، والذي لا يملك الشعر ان يكون « ثوريا » دونه الا وهو « الثورة في الشعر ذاته » .

في الطرف النقيض يقف الشاعر أدونيس ، وهو نموذج فذ لهاجس التغيـــر المستمر ــ والذي اشرت اليه سابقا ــ المتميز بمظاهر « الجرأة » و« الصمود » من اجل نمو اكثر طبيعية ، واكثر اصرارا في وجه ردود الافعال ، والانفعالات العاجلة . لقد بـــدأ أدونيس في الخمسينات مع بداية فترة التجديد ولكنه لم يتوقف شأن نزار في حدود « التجديد الانتقالي » من قاموس شعري ، الى لغة « عصرية » لا تملك في النهاية الا ان تتحول هي الاخرى الى قاموس شعري جديد « ثابت » . انه بدأ من جوهر فعل التغيير ، حيث « الثورة في الشعر » و« الشعر الثوري » لحمة واحدة لا حدود ولا فواصل بينهما . واهم ما أود الاشارة اليه هو « الجرأة » و« الصمود » والاصرار على النمو الطبيعي ، دون ان يترك نفسه مرآة تنعكس عليها ظواهر الانفجارات المفاجئة او العابرة . انه داخل الانفجار ذاته ، الانفجار الارادي المتصل . انه ردة فعل كبرى ، بمعنى المواجهة التي تفرضها مسيرة مستسلمة راكدة . ان « الثـــورة » لدى أدونيس ليست ثورة